

النخلة: بين الرمزية وتحول الدلالة

د. صلاح الدين باوية/ جامعة جيجل، الجزائر

الملخص :

استطاعت النخلة أن تسجل حضوراً متميزاً في الذاكرة الجماعية، وفي الثقافة العربية والإسلامية - على وجه الخصوص - حيث تواتر ذكرها منذ القدم في الكتب المقدسة، وفي الأحاديث النبوية الشريفة، ناهيك في مختلف آداب العرب وأشعارها. لكن النخلة لم تعد ذلك الكائن النبائي فحسب الذي يعطي دون مقابل، بل تحولت دلالاتها لتصبح معادلاً موضوعياً للوطن، وللمرأة الحبيبة، ولل قضية الإنسانية العادلة.

إنّ هذه الدراسة تحاول أن تقترب من أجل القبض على أهمّ هذه التحولات في الثقافة العربية.

الكلمات المفتاح: التمر، النخلة، تحول الدلالة في الثقافة العربية، الذاكرة الجماعية، الشعر، المرأة، الوطن

Abstract:

The Palm tree has a great and distinguished presence in the collective memory, and particularly in Arabic culture. Historically we can find it in the Holy Books, Prophet Mohammed's (PBUH) Hadiths, and in Arabic literature and poetry. However, the palm tree has not only this significance, but also it became a symbol that referred to the country the loved woman, and even human justice causes. This study attempts to seize the most important changes in the palm tree symbolization in the Arabic culture.

Keywords: Palm tree- signification in Arabic culture- collective memory- poetry- woman -country.

لم تعد النخلة هي تلك الشجرة ذات المنفعة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية فحسب. بل أصبحت لها مكانة ثقافية وحضارية مرموقة، وهذا لما أحرزته من حضور إلزامي في الذاكرة الجماعية، فعلاوة على ورود ذكرها مرّات عديدة في الكتب المقدسة، وفي السنة النبوية الشريفة. فقد ورد ذكرها أيضاً في أجناس أدبية مختلفة مثل: الشعر بنوعية الفصيح والشعبي، والقصص والأمثال، والروايات، وفي المسرح، وأدب الرحلات، وأدب الأطفال... الخ. بل نجد النخلة في الشعر العربي، قد تحولت من كونها نبتة، أو كائن نباتي، إلى كائن بشري ومعنوي، فأصبحت رمزاً معنوياً يمثل: الوطن، المرأة، الشموخ والمقاومة، القضية الإنسانية العادلة... الخ. وهذا ما سنحاول التطرق إليه في هذه الدراسة:

01- أهمية النخلة منذ القديم:

لقد اتفقت أقوال كثيرة على مدى أهمية النخلة في حياة الإنسان والحيوان، وكلّ هذه الأقوال تكاد تجمع على أن النخلة هي شجرة مباركة معطاءة، وثمارها غذاء كامل وعلاج لمختلف الأمراض، علاوة على أن النخلة ضاربة بجذورها في القدم.

هذا ويذهب العالم الإيطالي: اودو رادو بكاري دراسة العائلة التخيلية (Odarado Beccay)، الذي يعتبر حجة في من النبات، إلى أن موطن النخل الأصلي هو الخليج العربي، إلا أن هناك مناطق أخرى كثيرة ذكرتها الكتب منها: وادي الرافدين، ووادي النيل، وشمال إفريقيا، ومناطق مختلفة من المعمورة.

فمنذ القدم كانت هذه الشجرة المقدسة عند البابليين - مثلاً - "تزيّن ردهات المعابد الدّاخلية ومداخل المدن، وعروش ذوي التّيجان، فإله النّخل كان يظهر على هيئة امرأة ينتشر على أكتافها السّعف كالأجنحة. حتى أن شريعة حومورابي قنّت عدداً من موادها لحماية زراعة النّخل وتعهده: فالمادة الـ59 من شريعة حومورابي تنصّ على تغريم من يقطع نخلة واحدة بنصف من الفضة" (1).

أضف إلى هذا فقد " كان البابليون يستفيدون من الثّمر ونخله فوائد كثيرة. وفي القصيدة البابلية في العهد الفارسي تعداد لفوائد النّخل إذ أحصيت في 365 فائدة" (2).

بل نجد البابليين والأشوريين أدخلوا الثّمر في بعض الوصفات الطّبيّة، بل توصّلوا إلى تحضير شراب من نسغ للنخلة يُسمّى شراب بمصر في عصور ما قبل Rein Hardt الحياة، أما عند المصريين " لا شك أن نخيل الثّمر كانت مغروسة) في مقبرة التّاريخ، فقد عثر الدكتور: (رين هارت جهة الرزيقات قرب ارمنت على مومياء من عصر ما قبل التاريخ ملفوفة في حصير من سعف النّخل... كما عثر على نخلة صغيرة كاملة بإحدى مقابر سقارة حول مومياء من عصر الأسرة الأولى (حوالي 3200 ق.م) وهذا يوضح أهميّة شجر النّخل" (3). منذ العصور الغابرة في التاريخ.

02- علاقة النّخلة بالإنسان:

هناك علاقة وطيدة بين النّخلة والإنسان عبر مرور الأزمان، هذه العلاقة عزّزها التّاريخ الإنساني. فالإنسان بحاجة مسيية إلى النّخلة، ذلك أنّ كل جزء في النّخلة له فوائد عظيمة، ثمارها، ليفها ساقها، سعفها، جريدها، ناهيك عن المواد المختلفة التي تستخرج منها، فمن النّخلة معيشة الإنسان أكله وشربه، وعلف بهائم، ومن موادها يصنع المستلزمات الصّورية للحياة (سقف البيت، السّير، الكراسي، الطاولات، المظلات، القفاف، الأبواب والنّوافذ... الخ. بل إنّ النّخلة تصوّر على الارتباط بالإنسان في حياته وحتى مماته، ذلك أن جذوع النّخل وسعفه تستعمل كمستلزمات أثناء دفن الميت.

ولذا دأب الإنسان على رعايتها وحمايتها من الأخطار الطّبيعية والحيوانية، فهو يتعهدها مثل أبنائه. وعندما تبلغ السّنة الخامسة من غراستها، يصبح بإمكانها طرح الثمار، والنّخلة شبيهة بالإنسان في صفات عديدة، وفي هذا الشّأن يقول: " كمال الدين القاهري صاحب كتاب النّبات والحيوان: إنّ النّخلة تشبه الإنسان كالأتي:

01 - فهي ذات جذع منتصب.

02 - ومنها الذكر والأنثى.

03 - وإنها لا تثمر إلّا إذا لُقّحت.

04 - وإذا قطع رأسها ماتت.

05 - وإذا تعرّض قلبها لصدمة قوية هلك.

06 - وإذا قُطع سعفها لا تستطيع تعويضه من محلّه، كما لا يستطيع الإنسان تعويض مفاصله.

07 - والنّخلة مغشاه بالليّف الشّبيه بشعر الجسم في الإنسان.

فهل لا تكون هذه الصّفات شبيهة بصفات البشر، مع العلم أنّ عدد الصّبغات الوراثية

(الكروموسومات) 49 (7x7) في النخلة والإنسان" (4).

ونظرا لهذه العلاقة الوثيقة التي تنم عن وجود قرابة بين النخلة والإنسان، دعاها الرسول (ص) بالعمّة ودع إلى إكرامها، وهذا في قوله: (ص) "أَكْرَهُوا عَمَتَكُمْ النَّخْلَةَ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الطِّينِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ".

03- النخلة ومشتقاتها في القرآن الكريم:

لقد ورد ذكر النخلة في القرآن الكريم في أكثر من سورة وآية، وهذا في نحو (15 سورة) من ذلك: "البقرة، الأنعام، الرعد، النحل، الإسراء، الكهف، مريم، المؤمنون، الشعراء، يس، ق، القمر، الرّحمان، الحاقة، عبس". كما ورد ذكر النخلة في نحو (21 آية). وقد جاء ذكرها بصيغ صريحة مثل: (النخل، النّخل، النّخلة)، وفي أحيان أخرى بصيغ مجازية وذلك بذكر مشتقاتها أو قرينة تدلّ عليها مثل: (ثمرات النّخيل، الأكمام، طلع نصيد، قنوان، جذع، العرجون، الرطب، أعجاز... الخ. ومن أمثلة ورودها في القرآن الكريم، قوله عز وجل في سورة مريم: "فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ فَبَايَعَتْ بِهَا نَفْسًا لَهَا فَوَافَقَتْهَا قُلُوبًا فَكُنْتُمُ الْكَاذِبِينَ" (سورة مريم، آية 23). وقوله في السورة نفسها: "وَهَرَبَ لَكُمْ لِجِذْعِ النَّخْلَةِ طُعْمًا لَكُمْ طَبْعًا" (سورة مريم، آية 25). ويقول تعالى في سورة ق: "وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ" (سورة ق، آية 10). وفي سورة الرّحمان ورد قوله تعالى: "فَاكِهِمُ النَّخْلُ" (سورة الرّحمان، آية 11). لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، من ذكر النخلة في سور وآيات قرآنية مختلفة - كما ذكرنا مسبقاً - بل نجد النخلة قد تجلّت أيضاً بكثافة في الأحاديث النبوية الشريفة.

04- النخلة ومشتقاتها في السنة النبوية:

لم يقتصر ذكر النخلة ومشتقاتها على القرآن الكريم فحسب، بل جاء ذكرها في السنة النبوية عديداً من المرات، وفي مواضع كثيرة تربو على الثلاثمائة حديث شريف، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على مدى أهمية هذه الشجرة المباركة. ولذا للتدليل سنقتصر على بعض هذه الأحاديث.

فقد عن الرسول (ص) قوله: "إِصْطَبَحَ كُلُّ يَوْمٍ تَحَاتِ عَجْوَةً، لَمْ يَضُفْ سَمٌّ وَلَا سِحْرٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ". وقال وفي حديث آخر قوله: (ص) "مَنْ تَصَبَّحَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً، لَمْ يَضُفْ سَمٌّ وَلَا سِحْرٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ سَمٌّ وَلَا سِحْرٌ" (6) غيره: "سَبْعَ تَمَرَاتٍ" (5). كما ورد عن الرسول (ص) قوله: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ" (7).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسفلنّ، تجدي شيءاً غير تمر، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي (ص) فحلفت أن لا تأكل منها، فقال: "فإن ابنتي من هذه البنات بشيء كنّ له ستر من النار" (8).

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عائشة بيت لا تمر فيه جياح أهلُهُ، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياح أهلُهُ، أو جاع أهلُهُ، قالها مرتين أو ثلاثاً" (رواه مسلم).

بل إنَّ الرسول (ص) نهى عن القران بيت تمرتين، فعن جمانة بنت سحيم قاطبة عام سنة مع ابن الزبير، فزقنا تمرًا، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يمر بنا ونحن نأكل، فيقول لا تقارنوا، فإن النبي (ص) نهى عن الإقران، ثم يقول: إلا أن يستأذن الرجل أخاه. (9) (متفق عليه).

كما ورد قوله: (ص) "أَكْرَهُوا عَمَتَكُمْ النَّخْلَةَ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الطَّيْنِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ".
من خلال هذه الأحاديث الشريفة، يتبين مدى أهمية النخلة وعلاقتها بالإنسان، ومدى توطّد صلة القرابة فيما بينهما.

05- النخلة ومشتقاتها في الأمثال العربية:

لقد حضرت النخلة ومشتقاتها بكثرة في نثر العرب والمسلمين، ولاسيما في الجنس الأدبي الموسوم بالأمثال، ولعل من بين هذه الأمثال قولهم: "(الثمر في البر) يراد به: من عمل عملاً كان له مبرجاً أوصله أن يُنادى ما كان يقوم في الجاهلية على أطعم من أطام المدينة حين يُدرك البُسْر، فينادي: الثمر في البر، أي أكثرُوا من سقي نخيلكم، فإن من سقى وجد عاقبة سقيه في تمره" (10). ولعل من الأمثال القريبة في معنى هذا المثل: "من جدّ وجدّ، ومن زرع حصد". ومن الأمثال العربية التي تعرض بالنخلة أيضاً قولهم: "(تَيّ الْفَيَّانُ كَالنَّخْلِ، وَمَا يُدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ) يضرب مثلاً للرجل له مظهر ولا مخبر له، والدخّل ما يَجُنُّ في الشيء. يقال: شيء مدخول، إذا كان فاسد الجوف" (11).

ويقال أيضاً: "(أَلَدَ مِنْ زُبْدِ بَرْبٍ) والزُّبْدُ تَمَرٌ مِنْ تُمُورِ البَصْرَةِ" (12). وقولهم: "(أَلْهَفٌ مِنْ قَضِيبٍ) وكان تَمَّاراً بالبحرين، اجتمع عنده حشَفٌ كثير، فجعل فيه كيساً فيه ألف دينار، ونسيه هوجاء أعرابي فباعه إيّاه، فاحتمله وذهب به، ثم تذكر الدنانير، ففتحها واستخرجها من بعض جلاله، وكان حمل معه سكيناً، أراد أن يشق بطنه إن لم يجدها، فتناول الأعرابي السكين وشق بطنه" (13).

وقد جاء قولهم أيضاً: "(مَتَى كَانَ حُكْمُ اللَّهِ فِي كَيْبِ النَّخْلِ يَهْرَبُ مثلاً للرجل يقصّر عما يتوعى إليه، ويؤهل نفسه له. والمثل للرجل، وهو قوله:

أَقُولُ وَلَمْ أَهْلِكْ سِوَابِقِ عِبْرَةٍ مَتَى كَانَ حُكْمُ اللَّهِ فِي كَيْبِ النَّخْلِ

قالته للصّلتان العديّ وكان قد وقع بين جرير والفرزدق... فقال الصّلتان أبياتاً منها:

أَعِيَ-رَتْنَا بِالنَّخْلِ مَدَّ كَانَ مَا لَنَا وَوَدَّ أَبُوكَ الْكَلْبُ لَوْ كَانَ ذَا نَخْلٍ

وَأَيُّ نَبِيٍّ كَانَ مِنْ غَيْرِ قَرْيَةٍ وَمَا الْحُكْمُ يَا ابْنَ الْكَلْبِ إِلَّا مَعَ الرُّسُلِ (14).

وتقول العرب أيضاً في أمثالها: "(مَا كُلُّ سَوْدَاءَ تَمْرَةٍ) ومثله قولهم: "مَا كُلُّ بَيْضَاءَ شَحْمَةٍ" قال زفر بن الحارث: وَكُنَّا حَسْبَنَا كُلَّ سَوْدَاءَ تَمْرَةٍ لَيْسَ مَالِي لِأَقْنِيَا جَاهِلٍ حَمِيرٍ (15).

وقول العرب: "(وَجَدَ تَمْرَةَ الْغُرَابِ لِي) وجد ما طلب من الخير والسعة، وذلك أنّ الغراب يتقي أجود تمرّة ويأكلها" (16). هذه بعض الأمثلة التي قالتها العرب في النخلة ومشتقاتها، وكل مثل إلّا ولديه مضرب ومورد.

06- النخلة وتحول الدلالة في الشعر العربي:

لقد تجلّت النخلة ومشتقاتها في الشعر العربي بداية من العصر الجاهلي، لكون شبه الجزيرة العربية بيئة صحراوية بامتياز يكثر فيها النخيل بكل أصنافه وأنواعه، فهذا حسان بن ثابت يفتخر بالنخلة بالنخل والاطال تجري خلالها جداول قد تعلو رقاقاً وجرولاً قائلاً:

وقال آخر في النخيل، والبلح:

كَأَنَّ النَّخِيلَ سِقَاتٍ وَقَدْ بَدَتْ لَنَاظِرِهَا حَسْبًا قَبَابَ زَبُجِدٍ

وَقَدْ عَلَّقْتِيْ جَوْهَ مَا زَيْنَةَ لَهَا فَنَادَيْلِ يَاقُوتٍ بِأُمَاسٍ عَسَجِدَ (17)

وقال السريّ الوفاء المتوفى سنة 366 هـ

فَالنَّخْلُ مَنْ بَاسَقٍ فِيهِ وَبَاسِقَةٌ يَضَاهِكُ الطَّلَعُ فِي قَوَاتِلِ الرُّطْبِ مَا
أَضَحَتْ شَمَارِيخُهُ فِي النَّحْرِ طَلْعَةً إِمَّا ثُرِيًّا، وَإِمَّا مُعْصِمًا خَضِبَ مَا
تُرِيكَ فِي الظِّلِّ عَتِيَانًا، فَإِنْ نَظَرْتُ شَمْسَ النَّهَارِ إِلَيْهَا خَلَّتْهَا لَهَا (18)

وقال آخر في البلح الأخضر:

أَمَا تَرَى النَّخْلَ قَدْ نَشَرَتْ لَهَا جَاءَ بِشِيرًا بِدَوْلَةِ الرُّطْبِ
مَكَاحِلًا مِنْ زَمَرٍ خَرَطَتْ قُمُوعَاتِ الرُّؤُوسِ بِالذَّهَبِ (19)

وقال آخر في البلح الأحمر:

انْظُرْ إِلَى الْبُسْرِ إِذْ تَبَدَّى وَلَوْزُهُ قَدْ حَكَى الشَّقِيقَا
كَأَنَّمَا خَوْصُهُ عَلَيْهِ زَرَجَدُهُ شَمَرٌ عَقِيقَا (20)

فالشاعر العربي في هذه الأبيات - السالفة الذكر - قد استحضّر "النخلة" شجرة ذات قيمة غذائية، أو نبتة ذات ظلال وارفة تقيه من حرّ الهجير، أو صورة نمطية من صور الحياة اليومية للإنسان العربي بشبه الجزيرة العربية، ولذا راح يفتخر بالنخلة حيناً، ويصف البلح الأخضر، والبلح الأحمر أحياناً أخرى، لكن لم تلبث أن تحوّلت دلالة النخلة فأصبحت تمثل الوطن، والمرأة،... الخ.

أ- النخلة الوطن:

تحوّلت النخلة بحكم حضورها الإلزامي الطّاغي في الدّكرة الجماعية لدى العرب والمسلمين، من نبتة إلى رمز إشعاعي يدلّ علماوطن، فأصبح الحديث عن النخلة بمعنى الحديث عن الوطن، وكلّ ما يتعلق بالأمكنة الحميمية الأثيرة لدى الشّاعر. فهذا - عبد الرّحمان الدّاخِل - رغم ما كان ينعم به من عيش رغيد، وحياة ملؤها الجاه والسُّلطان والمال بالأندلس، إلّا أنّه حينما رأى نخلةً في تلك الدّيار النّائية، تذكّر (الرّصافة بالعراق) وعادوته ذكريات موطنه الأصليّ بالمشرق، فغمره الحنين إلى مُنبتِ عزّه، ومرباع صباه، ومرتع أحلامه، وأيّام أنسه مع أقرانه، فلم يتمالك نفسه وتدفّق الشّعْر على لسانه يقول:

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَدَاعَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بِلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ شَبِيهِي فِي التَّغْرِبِ وَالتَّوَى وَطُوبَى لِمَنْ سَاءَ يَوْمُهُ عَنِّي وَعَنْ أَهْلِي
نَشَأَتْ بِأَرْضِ أُنْتِ فِيهَا غَرْيَةٌ فَحَثَلْتُكَ فِي الْإِقْطَاءِ وَالْمَتَى أَيْ مَثَلِي
سَقَطَتْ غَوَايِ الْمَزْنِ فِي الْمَتَايِ الْإِلَى يَسْحُ وَيَسْتَحْري السَّمَاكِينَ بِالْوَبْلِ (21)

فالنخلة هنا، هي الوطن بامتياز بكل ما يحمله هذا الوطن من ذكريات، وآمال، وأحلام، ومنه ربما "يعود اهتمام الشاعر العربي برمزية النخلة، إلى أنّها تمثل بالنسبة إليه الوطن الذي يمنحه الطمأنينة والسكينة، ويدفع عنه جبروت الصحراء ووحشة رمالها" (22).

وإلى جانب كون النخلة تمثل الوطن فهي أيضاً تمثّل المرأة بكلّ أبعادها.

ب- النخلة المرأة:

أصبحت النخلة معادلاً موضوعياً للمرأة بامتياز، فكلاهما يشتركان في عديد من الخصائص والصفات: كالجمال، والخصب والنماء، والعطاء دون مقابل.. إلى غير ذلك من الصفات الإيجابية

ولعل من أبرز الشعراء الذين تغنوا بالنخلة منذ القدم وقرنوها بالمرأة، "امرؤ القيس بن حجر". حيث قال في معلقته الشهيرة:

وَفَرَّعَ يَزِينُ الْمَقْنَ أَسْوَدَ فَا حِمٍّ أَثِيثَ كَقَوِّ النَّخْلَةِ عَثْ كُلٍ
غَدَائِهَا مُتَشَرِّرَاتٍ إِلَى الْعُلَا تَضِلُّ الْعِيقَا فِي مُثْنَى وَمُثْلٍ (23)

فالشاعر امرؤ القيس هنا، استحضر صورة النخلة كي يصف شعر محبوبته (فاطمة)، والتي خاطبها قبل هذا الموضع من القصيدة عن طريق التصريح قائلاً:

أَفَاطَمُ مَهْلًا بَعْدَ هَذَا التَّدْلِيلِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَرْنَعْتَ صَبِي فَأَجْمَلِي

وظف الشاعر أداة التشبيه (الكاف) في قوله: "كَقَوِّ النَّخْلَةِ" ليعلم أن محبوبته "تبدي عن شعر طويل تام يزين ظهرها إذا أرسلته عليه، ثم شبه ذواتيها بقنو النخلة خرجت قنواها، والدوائب تشبه بالعناقيد، والقنوان يراد به تجعدها وأثائها" (24).

بل لقد ضربت العرب المثل وهو قولهم (طَلُّ صُجْبَةٍ مِّنْ نَّخْلَةٍ حُلْوَانٍ)، وهو مأخوذ "من قول" طيع بن إياس "في جارية له باعها، ثم بئعته نفسه، فقال وهو بحلوان:

أَسْعِدَانِي مَا نَخَلْتِي حُلْوَانٍ وَابْكِيَا لِي مَن رُبَّ هَذَا الزَّمَانِ
أَعْلَمَا وَأَنْ رُبَّ سَهْلٍ لَمْ يَزَلْ يَفْشُقُ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْحَيَوَانِ
وَلَهْرِي لَوْ ذُقْتُ مَا حَقَّ الْفَرْقُ قَالَةً أَبُوكَا أَلَيْ أُنْكَانِي (25).

فكان الشاعر طيع بن إياس هنا، لم يجد غير نخلي حُلْوَانٍ، يبيتهما ما يُلَاقِيهِ من فراق جاريته وهذا لأنه رَمَاةً مَثَلُ صُورَةٍ جَارِيَتِهِ فِي صُورَتَيْهِمَا.

وفي السياق نفسه خرج المهدي هَاصِبًا إِلَى حُلْوَانٍ فَفَتَنَهُ مُغْنِيَةً فَقَالَ:

أَيُّ نَخْلَةٍ لِي حُلْوَانٌ بِالشَّعْبِ إِنَّمَا أَشَدُّكُمْ عَنْ نَخْلٍ جَنَى شَهْمَاكُمْ
إِذَا نَحْنُ جَاوِزْنَا الشَّيْءَ لَمْ نَزَلْ عَلَى وَجْهِ مِنْ سَيْرِنَا أَوْ نَرَاكُمْ (26).

هذا بالنسبة لتجليات النخلة في الشعر العربي القديم، أما في الشعر العربي المعاصر فقد ظلت النخلة أيضًا هي المرأة الحبيبة بكل تجلياتها، وبكل ما تحمله الكلمة من معنى، ذلك أن النخلة لا يعوزها الجمال في أبهى صورته، من قد ممشوق، وجدل مترحة مسدولة.

يقول - شاعر المرأة - نزار قباني في قصيدته: "مواويل دمشقية إلى قمر بغداد".

لي عَلَى الشَّطْنِ نَخْلَةٌ تَيْمَمْتِي بِهَوَاهَا فَأَقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَا
كَيْفَ أَنْسَى فِي (الْعُظْمِيَّةِ) ظِيْمًا أَشْعَلَ النَّارَ فِي هَائِي وَنَامَا؟ (27).

فما هي هذه النخلة التي تيمت الشاعر نزار قباني يا ترى؟، إنها بكل بساطة زوجته العراقية "بلقيس الراوي"، كيف لا وقد قرنها بحي الأعظمية الذي كانت تقطن فيه بالعراق، ولذا تحولت النخلة هنا من كائن نباتي، إلى امرأة تمثل حبيبة الشاعر وزوجته.

وليس الشاعر "نزار قباني" فحسب الذي رمز للمرأة بالنخلة، فهذا هو الشاعر "عز الدين ميهوبي" أيضاً، من شدة ولعه وتعلقه بحبيبته، إلى درجة أنه زرعها في ضلوعه نخلاً، حيث يقول:

أَنْتِ الَّتِي أَغْلَيْتُهَا وَشَمْتُهَا فِي مَبْسَمِي
وَزَعْتُهَا فِي أَضْلَعِي نَخْلًا بَكَى يَا مَوْحِي (28)

فالشاعر "عز الدين ميهوبي" هنا يقرن النخل بمريمه في دلالة روحانية عميقة، وتناسخ حوار شقيق في استحضار قصة مريم العذراء، وإذا كان قد زرع حبيبته في ضلوعه نخلاً، فإن الشاعر "مشرى بن خليفة" صارت حبيبته تنمو في ذاكرته نخلاً. إذ يقول:

يَا أُمْرَأَةً تُنَوِّ فِي ذَاكَ رَتِي نَخْلًا (29).

من خلال كل الأمثلة الشعرية التي سقناها يتبين مدى التصاق المرأة بصورة النخلة، فكلاهما يمثل الدفء والحنان، والعطاء دون حدود، وبلا مقابل.

ج- النخلة العطاء دون مقابل:

ما فتأت النخلة منذ كانت وعبر مختلف العصور، تغدق على الإنسان والحيوان معاً دون أدنى مقابل، فهي قد خلقت لتعطي لا لتأخذ، وفي غالب الأحيان ترد الإساءة بالإحسان، فحين ترمى بحجر فهي تعطي التمر، ولعل ميزتها هذه جعلتها تتحول من كائن نباتي، إلى رمز للعطاء والسخاء المنقطع النظير، والمدهش في هذا العطاء أنه دون مقابل، فقد لا يعتني الفلاح بالنخلة ويتركها ربما - لأسباب مختلفة - حتى دون تلقيح في حينه، ولكنها رغم هذا تلقحها الرياح فتلد الثمر بآذن الله. يقول الشاعر "أحمد شوقي" في قصيدته: "النخيل ما بين المنتزه وأبي قير".

وَبِأَسْقَةٍ مِنْ بَنَاتِ الرُّمَالِ نَمَتْ وَرَبَتْ فِي ظِلَالِ الْكُتُبِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ: أَهَذَا هُوَ النَّخْلُ أَمِيرُ الْخُحُولِ، عَوَسُ الْعَرَبِ؟
طَعَامُ الْفَقِيرِ، وَحُلَى الْغَنِيِّ وَزَادُ الْمَسَافِرِ، وَالْمُغْتَرِبِ؟
فِي إِذَا خَلَّتْ الرُّمْلُ، لَمْ تَبْخِي وَلَا قَصَّرَتْ خَلَاتُ التُّرْبِ (30).

فالنخل هنا من منظور "أحمد شوقي"، رغم أنه قد تحصل بجدارة على درجة سامية من بين جميع أنواع الأشجار الأخرى على اختلاف أنواعها وأشكالها، حتى صار بأحقية: ملك الرياض وأمير الحقول، إلا أن هذه الصفات لم تشنيه عن العطاء بسخاء، بل جعلته يغدق أكثر فأكثر دون طلب مقابل لذلك، وبالتالي لم يبخل ولم يقصّر، حتى صار طعام الفقير، وحلوى الغني وزاد المسافر والإنسان المغترب، فأئى عطاء بعد هذا يوازي ويضارع عطاء وسخاء النخلة؟.

د- النحلة الشموخ والمقاومة:

عُرفت النحلة منذ القدم، بارتفاع رأسها إلى عنان السمو، وشموخ قامتها، وعلو همته، مما جعلها في أكثر الأحيان عرضة للكوارث الطبيعية المختلفة، مثل زحف الرمال، وهبوب العواصف الهوجاء، وشدة الحر، ونذرة المياه ومن ثمة الجفاف، ناهيك عن تعرضها لاشتعال الحرائق... الخ.

ورغم كل هذه الظروف الطبيعية والمناخية ومدى قساوتها، إلا أن النحلة عرفت بالصبر، والأناة ومقاومة مختلف التنازل والكوارث، ولعل هذه الميزة هي ما جعلها تصبح رمزاً للمقاومة بمختلف أشكالها. يقول الشاعر "مفدي زكريا"، مستمداً من النحلة شموخها وصمودها، في حديثه عن المقاومة الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي:

وبين النخيل، وبين الرمال عزائم تَهْزَأُ بالُمْتَحِيلِ
يُواكِبُ عُقْبَهُ فِي الْخَالِ دِينَ مَسِيرَتَهَا لَسَوَاءِ السَّبِيلِ (31).

ويقول الشاعر "زوير دروخ"، مُستنكراً أفعال الغزاة القساة، وما صنعه بالعراق الشقيق:

لَوْلَاكَ يَا قَامَةَ الْأُمِّ جَادِيَا وَطَنِي وَبِأَشْمُوحِ النَّخِيلِ الصَّامِدَاتِ صَبَا
لَوْلَاكَ.. أَشْهَقَتْ شَمْسٌ عَلَى وَطَنٍ وَلَا أَضَاءَتْ عَلَى أَبْعَادِ حَقَبَا (32).

بل يذهب في هذا الشأن الشاعر "إدريس بودية"، إلى حد أن يستمد ويقتبس من نخيل العراق غضبه، وثورته على الاستعمار قائلاً: مِنْ نَخِيلِ عِرَاقٍ نَقَتْ بِسْ

فُسْحَةً لَانْشِطَارِ الدَّمِ فِي الْعُرُوقِ...
نَبْشِقُ.. مَوْجَةً مِنْ غَضَبِ (33).

بينما يحلم الشاعر "عز الدين ميهوي" بأن يبقى واقفاً مثل النحلة، صامداً بعد سقوط العمر. حيث يقول:

أَوْ وَوَدَا نَازِفَهُ
يَسْقُطُ الْعُرُوقُ وَهِيَ
مِثْلُهَا النَّحْلَةُ
دَوَّماً وَاقِفَهُ (34).

فالنحلة إذن من هذا المنظور صارت تمثل الشموخ والمقاومة، والتجلد أمام الظروف والكوارث الصعبة، وبالتالي: "أصبحت تُشكّل النحلة في الشعر العربي، على وجه الخصوص نموذجاً رمزياً خاصاً، إنها التجسيد الأسمى لكل معاني الخصب والقوة والتجلد في مواجهة الصعاب وقهر عدوانية الزمان والمكان، إنها الفضاء الرمزي القادر على احتواء معاني الحياة في المكان المقصود بصورة رمادية شاحبة" (35).

هـ- النحلة القضية:

استمداداً من صفتي الشموخ والمقاومة، أصبحت النخلة تُشكّل رمزاً للقضية بامتياز، ومعالماً موضوعياً لكل قضية إنسانية عادلة، والقضية الفلسطينية على وجه الخصوص، يقول الشاعر: "محمود درويش" في قصيدته "وطن":

علّقوني على جَائلِ نخلة واشتقوني... فلن أخون النخلة
هذه الأرض وليّت قدماً أحلب النوقَ راضياً ومُؤلاًه (36).

فما هذه النخلة يا ترى التي لن يخونها الشاعر محمود درويش، مهما علّقوه وشنقوه ؟
إنها ببساطة أرض فلسطين، وقضيتها المقدّسة العادلة التي عاش لها ولأجلها ومن أجلها، لاسيما وقد قرنها بقوله: (هذه الأرض لي..).

07- النخلة من خلال العنوان في المتن الشعري الجزائري:

للعنوان دلالاته الهامة في النقد الأدبي المعاصر، فهو بمثابة النص المختزل، وهو دل إشاري مهم في استقراء النصوص، ولذا قيل: "الكتاب يعرف من عنوانه".

ونظراً لأهمية العنوان وما يوحي به، نجد معظم المناهج والدراسات الحديثة والمعاصرة قد اهتمت به أشد ما يكون الاهتمام، فهو أول عتبة من عتبات تشريح النص، وبالتالي يحتل المكانة الأولى أثناء عملية تحليل النصوص، باعتباره علامة إجرائية دالة وناجحة في استقراء وتأويل النصوص الأدبية.

ذلك أن أهمية العنوان في دراسة النص الأدبي وفقاً للوظائف الأساسية المرجعية والإفهامية والتناصية التي ترتبط بهذا الأخير وبالقارئ، ولن نبالغ إذا قلنا إن العنوان يعتبر مفتاحاً إجرائياً في التعامل مع النص في بعده الدلالي والرمزي (37).

من هذا المنطلق، فإننا نجد النخلة ومشتقاتها قد هيّمت بحضورها الطّاغي في المتن الشعري الجزائري. تارة من خلال عناوين القصائد، وتارة أخرى من خلال عناوين الدواوين الشعرية.

فمن خلال عناوين القصائد تتجلى النخلة ومشتقاتها مثلما يلي في هذا الجدول:

الشاعر(ة)	عنوان القصيدة	الصفحة	عنوان الديوان
عز الدين ميهوبي	قافية على قبر النخلة النأسكة	65	في البدء.. كان أوراس
محمد الأخضر سعداوي	النخلة	27	صرخة الميلاد
صلاح الدين باوية	النخلة	42	حديقة الملائكة
سعد مردّف	نخلة الوادي	147	يوميات قلب
عبد الحليم جراري	سلطة النخل أحضان النخيل	11 27	رسائل عاشقة
الأزهر عجيري	عاشق نخلة	39	دموع النخلة العاشقة

عمر البرناوي	أغنية النّخيل	69	من أجلك يا وطني
عمر البرناوي	يا نخلة ما مثلها أحد	72	من أجلك يا وطني
عثمان لوصيف	نخلة القفر	09	قصائد ظمأى
عيسى قارف	نخيل برّاً من تمره	45	نيل تبرّاً من تمره
عيسى قارف	باح نخل برّيتنا	48	نيل تبرّاً من تمره
محمد بن طبة	الغرس	17	صلوات في زمن الاحتراق

وما هذه الأمثلة إلا غيض من فيض، أما فيما يخص تجليات النّخلة ومشتقاتها من خلال عناوين اللّواوين الشعريّة، فإننا نعثر على ما يلي:

01- أغنيات النّخيل: ديوان للشّاعر (محمد ناصر)، صدر سنة 1981، عنوانه يدلّ على الزمن الهادئ الجميل، زمن الأغنيات، والطّمأنينة، واستقرار الجزائر، والنّخيل هنا رمز للأصالة.

02- النّخلة والمجداف: ديوان للشّاعر: (عز الدين ميهوبي)، صدر سنة 1997، خلال سنوات الجمر بالجزائر، فالنّخلة دلالة على السّكون، والسّوخ، والثّبات، والأصالة، أمّا المجداف دلالة على الحركة والتّنقل والسّفر، وبالتالي العنوان يرمز إلى عدم الاستقرار، وهجرة الأمن والأمان.

03- النّخيل تبرّاً من تمره: ديوان للشّاعر (عيسى قارف)، صدر سنة 1999، والعنوان يدلّ على قمة المأساة الجزائرية خلال فترة التسعينيات فعندما يتبرّأ النّخيل من تمره، معناه تبرّأ كلّ راعٍ من رعيته، وتخلّي كلّ مسئول عن مسؤوليته، فحينئذ على الدّنيا السّلام.

04- دموع النّخلة العاشقة: ديوان الأزهر عجيري (الفيروزي)، صدر سنة 2004، وهو عنوان يرمز إلى تداعيات قصّة عشق فاشلة، وما النّخلة هنا إلا دلالة على المرأة التي أحبها الشاعر.

05- كلّ الدُّروب تؤدي إلى نخلة: ديوان محمد علي الهاني، النّخلة هنا دلالة على الأصالة والهوية وبالتالي لا وجود لأيّ تقدّم وتطوّر للإنسان، من دون المحافظة على الأصالة والهوية، أضف إلى هذا فإن للنخلة أهمية كبرى على الصّعيد الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي.

06- تغريبة النّخلة الهاشمية: ديوان أحمد عبد الكريم، وهو يدلّ على الدور الريادي للنّخلة، ومدى محافظتها على مقومات الأمة العربية الإسلامية، واقتفاء أثر تغريبة بني هلال.

من خلال ما أثبتناه في هذه الدّراسة، "إنّ النّخيل هو رمز الإنسان العربي الأصيل الذي لم تدنسه حضارة المدينة، ولم يرتو من نبعها السّمج، إنّها الجذر العربي بتاريخه وحضارته الإسلامية ومبادئه وأسسها التي يقوم عليها" (38).

لتبقى النَّحْلَةُ رغم ما يهددها من أخطار بشرية، وطبيعية، وحيوانية رمز الشموخ، ومثالاً - قَلَّ نظيره - للأئمة والكبراء لا تحني رأسها للعواصف الهوجاء مهما كان، وهي من جهة أخرى رمز الجمال، والعطاء، والخير والبركة على مَرَّ العصور.

هوامش :

- 01- النَّحْلَةُ والرقم سبعة، مقالة من الانترنت، شوهد يوم الأحد 2014/12/07، على الساعة 22:34 مساءً ، ص 01.
http://www.yabeyrouth.com/pages/index_10191.htm
- 02- المرجع نفسه، ص 01.
- 03- المرجع نفسه، ص 02.
- 04- المرجع نفسه، ص 02.
- 05- الإمام محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، صحيح البخاري، كتاب الطَّب (بَابُ الدَّوَاءِ بِالْعَجْوَةِ لِلَّسْحَرِ) ، ضبط النَّصِّ محمود محمد محمود حسن نصَّار، طبعة جديدة لؤنان، منشورات دار الكتب العلمية، لبنان، ط. 9، 2017، ص 1072.
- 06- المرجع نفسه، ص 1072.
- 07- المرجع نفسه، كتاب الزَّكَاة (بَابُ اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَالْقَلِيلِ مِنَ الصَّلَافَةِ)، ص 263.
- 08- المرجع نفسه، كتاب الزَّكَاة (بَابُ اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَالْقَلِيلِ مِنَ الصَّلَافَةِ)، ص 263.
- 09- الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، (باب النهي عن القران بين تمرتين ونحوها إذا أكل في جماعة إلا بإذن رفقته) شرح الإمام صالح بن عثيمين، وتخرّيج الأحاديث الشيخ ناصر الدين الألباني، دار الكتاب الحديث، القاهرة، د، ط، 2011، ص 266.
- 10- أبو هلال العسكري، كتاب جمهرة الأمثال، دار ابن حزم، لبنان، ط. 1، 2008، ص 161.
- 11- المرجع نفسه، ص 165.
- 12- المرجع نفسه، ص 501.
- 13- المرجع نفسه، ص 502.
- 14- المرجع نفسه، ص 525.
- 15- المرجع نفسه، ص 537.
- 16- المرجع نفسه، ص 561.
- 17- السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج. 2، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان د. ط، 2004، ص 290.
- 18- المرجع نفسه، ص 291.
- 19- المرجع نفسه، ص 291.
- 20- المرجع نفسه، ص 291.
- 21- عيسى خليل محسن، أمراء الشعر الأندلسي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط. 1، 2007، ص 102، نقلا عن منتخبات من الشعر الأندلسي، ل. أ. ر. ناكيل، طباعة بيروت، 1949، ص 09.
- 22- مختار ملاس، دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث عبد الله البردوني - نموذجاً - ، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرعاية، د. ط، 2002، ص 56.
- 23- امرؤ القيس، الديوان، دار صادر، بيروت، ط. 3، 2007، ص 44.
- 24- المرجع نفسه، تمهيش، ص 44.
- 25- أبو هلال العسكري، كتاب جمهرة الأمثال، ص 380.
- 26- المرجع نفسه، ص 380.
- 27- نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، ج. 3، منشورات نزار قباني، بيروت، ص 504.

- 28- عز الدين ميهوبي، الرباعيات، دار أصالة للنشر، مطبعة هومة، الجزائر، ط.1، 1988، ص.77
- 29- مشري بن خليفة، سين، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة، الجزائر، ط.1، 2002.
- 30- ديوان شوقي، ج.2، دار صادر بيروت، ط.3، 2007، ص.218
- 31- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، موفم للنشر، الجزائر، د.ط، 1995، ص.73.
- 32- الزبير دردوخ: قصيدة صمود النشامى، ص112، نقلا عن كاظم العبودي، أم المعارك في ديوان الشعر الجزائري، دار الهدى عين مليلة، د.ط، د.ت.
- 33- إدريس بوذبية: قصيدة ذو القرنين يمشي حتى مطلع الشمس، نقلا عن المرجع السابق، ص.33.
- 34- عز الدين ميهوبي، اللعنة والغفران، منشورات دار أصالة، مطبعة هومة، الجزائر، ط.1، 1997، ص.62.
- 35- مختار ملاس، دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث عبد الله البردوني - نموذجاً -، ص.55، 56.
- 36- أنس بديوي وحسان الطيّبي، روائع الشعر العربي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط.1، 2005، ص.295.
- 37- ينظر بلقاسم دفة، علم السيمياء والعنوان في النص الأدبي، محاضرات الملتقى الوطني الأول للسيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، 2000، ص.38.
- 38- مختار ملاس، دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث عبد الله البردوني - نموذجاً -، ص.57.